المدائح النبوية في الشعر الجزائري الحديث
بين أشياع التصوف وأنصار الإصلاح

Prophetic Praises in Modern Algerian Poetry between Suffists and Reformers

د. كمال لعور

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

laouer.kamel@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/24 **تاريخ القبول: 2021/11/16**

ملخص:

ملأت المدائح النبوية بعض الفراغ الأدبي في الجزائر إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية وما قبلها أيام التواجد التركي، وقد كان لها دور في إذكاء الحياة الأدبية، والدينية فأسهمت في استقواء الممارسة الشعائرية الجماعية، وكانت ترجمة أمينة للحال الذي وصل إليه الشعر في تلك الحقبة، إذ كان في خدمة الفكرة الدينية شكلا ومضمونا، وقد كانت للنبي صلى الله عليه وسلم في نفوس الجزائريين متصوفة ومصلحين مكانة عظيمة لا ترقى إليها مكانة أيّ شخص، فحبهم للنبي فاق ولا يزال كلّ الأوصاف، وبعض دليل ذلك الأشعار الجمة التي نظمت في مدحه، وتنافس في هذا المضمار المتصوفة والمصلحون، واصطبغ الشعر لدى كلّ طائفة بخصوصيات، يحاول هذا المقال أن يستجليها، ويتبين طريقة نظم الفريقين للأشعار المدحية النبوية.

الكلمات المفتاحية: تصوف، إصلاح، حقيقة محمدية، مدائح نبوية، بديعيات.

Abstract:

The prophetic praises filled some literary void in Algeria during Turkish and colonial eras. They had a role in spiritual and literary life, and contributed to keeping collective religious ritual practice surviving. It was a true evidence about the state that poetry and literature reached at that time from . Eventually, it was serving the religious idea in form and content, And the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, had a great position in the Algerians' hearts; suffists and reformers. Their love for the Prophet surpassed all sorts of descriptions. Some of the evidence for that are the

great poems that were organized in praise, and competed in this regard by Suffis and reformers whose poetry was totally characterized with picularities . This article attempts to elucidate these characteristics, and investigate the way the two groups organized their prophetic poems.

***Keywords*:** Sufism, reform, Muhammadiyah truth, prophetic praise, Badi'at.

مقدمة:

شكّل التصوف مادة ثرية للأدب الجزائري، ولفن الشعر على الخصوص، وأخذت المدائح النبوية الجزء الأكبر من هذه المادة، حتى غدت المدائح غرضا شعريا لا يزول ولا يحول بمر العصور والحقب، وامتلأت كتب السير والتراجم والدواوين منذ العهد العثماني بأشعار مولعة بوصف شمائل النبي بعفوية وتصنع، وبمناسبة المولد وبغير مناسبة، واستلهم الشعراء مادتهم من قصص السيرة النبوية، والأحاديث الشريفة، واستنبطوا من معاني القرآن وتعابيره ما يعينهم على بثّ عاطفة الشوق لحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان للاتجاه الصوفي سيطرة مطلقة على غرض المدائح، ومع مستهل الفترة الحديثة شاعت المدائح عند مختلف الشعراء بغض النظر عن توجهاتهم، ودخل غمار المنافسة التيار الإصلاحي، فلهج شعراءه بنصوص مدحية ومولدية فيها حرارة العاطفة، وصدق الواقع واختلف النسيج النصي عند الفريقين باختلاف الرؤية الفقهية، والمصادر المعتمدة، فكان في شعر المتصوفة مبالغة وإطراء وإسراف يحاكي حالات الجذب والغيبة التي عرفوا بها، وكان في أشعار الإصلاحيين اعتدال يقف عند حدود الشريعة، ولا يوغل في أعماق الفهم الباطني ونحاول أن نستبين إن كانت الأشعار المدحية على كثرتها بالجزائر قد أضافت سندا داعما للشعرية العربية، أم أنها اجترار وتكرار للمعاني قد حقق حرارة دينية ولم يجلب متعة فنية فهل كان حقا شعر المولديات كما صرح ابن خلدون ضعيف المعنى هزيل المبنى؟ وما أوجه التباين والتماثل بين المدح الإصلاحي والطرقي؟

1– أنوية المديح النبوي:

ينبغي التأكيد على أنّ شعر المديح النبوي ليس تطورا لشعر المدح الذي عرفته البيئة الجاهلية، بل يرتبط بفترة الإسلام خاصة، وبالشاعر حسان بن ثابت الذي يمثل اللبنة الأولى

في ظهوره، فاصطبغ الشعر على يديه بصبغة دينية كونه كان شاعرا مخضرما أحسن الاستفادة من أساليب الجاهلية ومزجها مع ما طرأ في الدعوة الإسلامية الجديدة، وقد تجلّت في قصائد حسان كلمات كثيرة استحالت إلى مصطلحات يوظفها المتصوفة مثل طيبة الهادي، الطريقة[1]؛ ويمثل هذا المديح أيضا تلك القصائد التي عبّر فيها الشعراء عن إيمانهم بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بانتصاره على قريش، أو باعتذارهم عما بدر منهم كقصيد كعب بن زهير المعروفة "بانت سعاد"[2]، وهي قد بلغت عند طوائف المسلمين مبلغا عظيما من التوقير والاحترام، ونالت اهتمام علماء الأدب واللغة، حتى إن بروكلمان أحصى من شروحها التركية والفارسية العربية خمسة وثلاثين شرحا، ومن تخميساتها ثلاثة عشر تخميسا، وعددا كبيرا من معارضاتها وترجماتها إلى سائر اللغات[3]؛ فكيف نالت هذه المكانة بين أشعار الذين صاحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وخاضوا أعنف الحروب من أجل الدعوة المحمدية، ورغم أنّ عاطفتها الدينية لا تبدو قوية إذا قورنت بأشعار غيره من شعراء الرسول، وهي داخلة قطعا في شعر الاعتذاريات أكثر من شعر المديح؟

ومع ظهور الأحزاب الدينية في العهد الأموي انبثقت نواة أخرى لشعر المديح عند الشيعة الذين اصطنعوا نصوصا تشيد بآل البيت وبالرسول صلى الله عليه وسلم، تقترب في عاطفتها الصادقة – على حدّ تعبير الركيبي – من شعر التصوف إن لم تكن نواة له لكنها ارتبطت بالسياسة وحقّ آل البيت في الخلافة في حين بقي التبرك والتوسل يحرك دفة المدائح الصوفية، ويؤكد الدراسون[4] على الصلة القائمة بين التشيع سواء الإثنا عشري أو الإسماعيلي في توجيه الاهتمام بالموالد النبوية، فأشعار الشيعة، وقصائدهم في مراثي الحسين، أو في الاحتجاج لحق آل البيت في الإمامة، كانت تتخذ من وصف شمائل الرسول، والإشادة بالمناقب النبوية منطلقا للحديث عن فضائل آل البيت، ولهذا يمكن اعتبار كثير من هذا الشعر الشيعي ضربا من المدائح النبوية، أو على الأقل نرى فيه نواة مبكرة لهذه المدائح.

ويرى بعض الدارسين أنّ مدح الفرزدق للنبي وأهله هو بداية الصدق في المدائح النبوية ذلك أن مدائح حسان وقعت في أيام كان مدح النبي فيها ينفع الشاعر ولا يضره، أما مدح النبي وأهله في أيام الفرزدق فكان بابا من الشر يفتح للمادحين، لأنّ تلك المدائح ما كانت تروق بني أمية، وكيف تروقهم وهي تزكية لخصوم أولئك الخلفاء[5].

وتنامى التحمس للشعر الصوفي والمديح النبوي على إثر النكبات التي حلّت ببلاد المسلمين بعد سقوط بغداد، وغزو المغول الذين قتلوا خلقا كثيرا فيهم عراب المدائح النبوية الشاعر الصرصري[6]؛ فلاذ الناس بالدين، وشاعت المدائح النبوية[7] حتى استقرت في نموذج البوصيري المحتذى من كبار الشعراء وضعافهم، ونجم عنه ظهور البديعيات[8]؛ وهي طراز آخر من المديح النبوي منمق بالمحسنات المصطنعة، فبالغ أصحابه في الصنعة اللفظية التي جاءت في مديح البوصيري عفوا.

إنّ المتتبع لأحوال الناس في القرنين السادس والسابع الهجريين، يلاحظ بوضوح غلبة الروح الدينية على مجمل النشاط الإنساني في الأمصار العربية الإسلامية، ويظهر أن ما شهدته من اضطرابات عنيفة بسبب الغزو الخارجي من جهة، وبسبب النزاع السياسي الذي تستر بالعقيدة بين القوى المتصارعة على السلطة من جهة ثانية، كان وراء التمسك بالدين والحرص على شعائره، طلبا للراحة والطمأنينة حينا واتخاذه سلاحا في الصراع الداخلي والخارجي حينا آخر[9].

ولقد تقوّت مكانة المولد النبوي وما تبعه من مراسم إلى درجة أن صلاح الديني الأيوبي قضى على الخلافة الفاطمية سنة 567هـ وأبطل رسومها وأعيادها، ولم يستبق من هذه الأعياد إلا المولد النبوي، بسبب عمق الشعور الديني، وازدياد سطوة الحركات الصوفية التي أخذت شكل مؤسسات محكمة التنظيم.

فالمديح النبوي[10] من فنون الشعر التي أذاعها التصوف على حدّ تعبير زكي مبارك فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص[11]؛ ويراد بها التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعن القدماء أو المحدثين بهذا الفن في اللغة العربية لأنّ الذين أجادوه لم يكونوا في الأغلب من فحول الشعراء، ولأنه لم يطرد في التاريخ، ولم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية[12].

وبالقوة نفسها غزا المديح النبوي المغرب العربي والأندلس، فأقبل الشعراء على النظم في المدائح النبوية إقبالا عظيما "نافس المغرب فيه المشرق، ونشأ فن جديد متفرع عن هذه

المدائح، أصبح يدعى بالمولديات"[13]؛ أي القصائد التي كانت تنظم خصيصا لكي تنشد في احتفالات المولد النبوي، فاهتم بها السلاطين والأمراء وعامة الشعب، ولا يكاد ديوان شاعر مغربي أو أندلسي ـ بدءا من القرن السابع ـ يخلو من عدد كبير من هذه المولديات هذا فضلا عن المدائح النبوية التي كان الشعراء ينظمونها دون أن تكون مرتبطة بالمولد.

يؤكد الكثير من الباحثين على جمود الأدب والفكر في الفترة التركية مشرقا ومغربا، ومع ذلك غزا المديح النبوي[14]؛ ومدح شيوخ الطرق، وإظهار التشوق للكعبة الحياة الشعرية مع ما يغلب عليه من نظمية وسطحية، ما يعني أنّ هذه التوسلات لا تعبّر عن عاطفة دينية حارة فقط بل عن مجتمع فقد دفته وانخرق شراعه فراح يبحث عنه في ركام التاريخ مستغيثا بخير البرية الذي قال فيه المسرحي الإنجليزي برناردشو "لو كان محمد حيا لحلّ مشاكل العالم وهو يرشف قهوة الصباح"، ففي اعتقادي أنّ شيوع المدائح إذ ذاك تعبير سريالي مراده البحث عن منقذ، وترجمة للتيه في وسط لجج الحياة، ويؤكد الركيبي من جهة أخرى "أنّ سلاطين الأتراك ورجال الطرق الصوفية شجعوا على مثل هذا الشعر"؛ الأوائل، بدافع تخدير الناس عن واقعهم المؤلم المتراكم البغيض، والآخرون لضمان الخضوع لسلطتهم الروحية حتى صارت الاحتفاليات أشبه بكرنفالات ضخمة.

ولا عجب بالتالي أن يمتزج مدح الدايات بمدح النبي في هذه القصائد، فهي في كل حال تخفي علاقة موطدة بين الطريقة والنظام السياسي القائم حينئذ، ويؤكد زكي مبارك الحقيقة عينها أنّ بعض المتصوفة اتخذوا من المولد النبوي وقصصه أحبولة يتصيدون بها أهواء الناس، والذي ينظر في تقاليد التصوف يراهم أدخلوا المولد في صميم الحياة الدينية حتى صار عيدا رسميا بفضل الدعاية الصوفية.

وليس الاحتفال بالموالد من التقاليد النبوية الأصيلة، ولهذا فإنّ المسلمين لم يتخذوا من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم مبتدأ للتاريخ الإسلامي، كما فعلت المسيحية لمولد السيد المسيح، وإنما اتخذوه من الهجرة، وهي في الحقيقة ميلاد للجماعة الإسلامية في المدينة، لكن احتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم، أصحاب الديانات القديمة، جعلهم يتأثرون ببعض عاداتهم، ومنها الاحتفال بتاريخ المولد[15].

2- المدح النبوي في العهد الاستعماري:

ولم تتبدل الأوضاع مع قدوم الاستعمار الفرنسي، فبقيت المدائح النبوية تهيمن على ساحة الأغراض الشعرية كأنّ أصحابها يستنجدون من العدم ومن التاريخ من يعيد لهم مجدهم الضائع، وشرفهم التليد المطموس، لكنها أيضا تكشف عن خلود الطرقيين إلى الدعة ومسالمة المستعمر بعد أن قيد أدوراهم في صوفية الرسوم والجسوم، ومتى أزعجت غازيا أجنبيا تلك الكرنفاليات الاحتفالية إن لم تكن مشجعا له لضرب عصفورين بحجر فمن جهة ليظهر احترامه للشعائر وطقوس المسلمين، ومن جهة أخرى ليبقى الناس معلقين بفردوس ضائع.

ولا يمكن أن تخفى النزعة المقاومة في شعر المديح النبوي مهما رقت، فمدح النبي صلى عليه وسلم وذكر مناقبه ومآثره مقاومة غير مباشرة لحملات التبشير الديني المسيحي التي اخترقت العالم الإسلامي بأفكار دخيلة، ودعمت الاستيطان الأجنبي على أراضيهم وحقنة بجرعة مخففة لتطعيم المناعة والحمية الإسلامية المنتهكة والمهددة في عقر دارها.

وقد سلك شعر المديح النبوي اتجاهين؛ اتجاه يعنى بالمدح النبوي الصوفي الخالص للإشادة والتوسل مستندا إلى الحقيقة المحمدية والنور المحمدي، واتجاه يركز على المدح النبوي الإصلاحي لاستنهاض الهمم ومعالجة الواقع مركزا على معجزات النبي ومكارمه.

من بين الشعراء الجزائريين الذين غرفوا من ضوء مشكاة النبوة وصفا ومدحا الشاعر محمد بن عودة بن سليمان[16]، فيبتدر في إحدى قصائده بوصف الرسول صلى الله عليه وسلم بمقدمة صوفية غزلية:

يا سـائلا عن جمـال كان لي وطنا ولم أزل أجتليـه وهو مـا بطـنا
حركت مني ولـوعا كـان مستتـرا ولم أزل أختفيـه وهو يعلنـــنا
لكنها صولة الأقدار قد حكمـت وكلنا تحت قهر الحسن قد سكـنا

ثم يشير إلى قيمة ذكر الشمائل النبوية والغاية من وصفها لمواجهة مصاعب الحياة واتخاذها سلوانا إذا ادلهم الطريق:

نعم شمائـل خير الرسل تنعشنـا طورا وتسكرنا صحوا من بعد فنا
علقت منذ الصبا روحي بها زمنا ولم أزل أرتــقي معنى بها استكنا
وهـاك منها فنونــا للعليــل دوا وللعشيق هوى يطوي الطريق لنـا

وعلى عادة الشعراء يتخذون من السيرة النبوية العطرة مصدرا لتخيل صورة النبي ويسردون أوصافه المأثورة علنا الجسمية والنفسية، ولعل قصة أم معبد الشهيرة في السيرة[17]؛ وشعر حسان أساس لأكثر ما جاء في المدائح النبوية من الأوصاف الحسية.

فمما دأبوا على ذكره ختم النبوة في كتفيه، وبعض معجزاته كالغمامة التي كانت تسير معه لتحميه من غيلة الأعداء:

ختم النبوة فوق الكتف قد برقت بطلسـم نلنا فيه ثــروة وهـــنا
غمامـة ظلت وجه الحبيب فلـم تعثر عليه عيون رامت وسنـا

من خلال قصيدة بن سليمان وقصائد أخرى يتجلى أنّ المديح النبوي في شكله يبدأ بالغزل، ثم يخلص إلى وصف الأخلاق، ثم وصف الجسد، وأخيرا التوسل والخاتمة، ولقد كان الحديث عن الخمر والنساء من المألوف في المدائح النبوية، وكان عند الشعراء الأوائل من الحقائق المعاشة في بيئتهم، وسيصير عند المتأخرين من الرمزيات، فشعثاء وسعاد في همزية حسان ولامية كعب حسناوان كان لهما وجود، والخمر كانت مما عرف هذان الشاعران، ولو في الجاهلية، أما عند المتأخرين من شعراء الصوفية فليلى أو شعثاء أو سعاد أو الصهباء أو الشمول، كل أولئك من الأسماء الرمزية، وأثر الحقيقة هنا ليس أقوى من أثر الخيال هناك[18].

والنصوص الشعرية للمتصوفة الجزائريين ترداد لما في دلائل الخيرات[19]؛ فهي تقتفي أشكالا قديمة تستلهمها كنماذج قارة تصفد روح الشعر والعاطفة الحارة، فيطغى التقليد ويغدو الشعر وثيقة جافة، ومن الشعراء من لا يبدأ بالغزل بل يخلص مباشرة للمدح والوصف ثم يعرج إلى ذكر المعجزات النبوية، وقد سلك عبد الرحمن الديسي[20] هذا المسلك:

إذ ناب خطر فاستجر بمحمـد نبي الهدى الماحي الحبيب الممجد
خلاصة خلق الله من كل كائـن وأعرف أهل الله بالله سيـــــدي
رؤوف رحيـم كامـل مكمـــل وباب طريق الله للكل فاقتـــــد

3- النور المحمدي والحقيقة المحمدية:

ومرجع هذه الفكرة إلى ما أشاعه المتصوفة من آراء ونظريات متطرفة في الدين، وميلهم المغرق إلى الغيبيات، وتفسيرهم الآيات والأحاديث تفسيرا غيبيا، لا يتوافق مع تفسيرها الظاهر، وكأنهم يبحثون عما يستتر خلف الحروف، لأنهم جعلوا كلّ شيء رمزا لما يقابله في عالم الغيب الذي يتوقون إليه وإلى كشف أسراره، حتى إذا وصلوا في مذهبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعلوه قطب أقطابهم، وصاحب طريقتهم، فرفعوه فوق كلّ مخلوقات الله، وأقاموا عليه نظرية الإنسان الكامل، والحقيقة المحمدية، وأنّ محمد صلى الله عليه وسلم هو أول المخلوقات، وأبو الأنبياء، أو أنه تجلى في شكل الأنبياء السابقين له[21].

وهذا الغلو لا يفهم إلا إذا عرفنا أنه يرجع إلى أصل من أصول التصوف، وهو القول بالحقيقة المحمدية[22]؛ والحقيقة المحمدية هي العماد الذي قامت عليه (قبة الوجود) كما عبر ابن عربي، هي صلة الوصل بين الله والناس، فهي القوة المدبرة التي يصدر عنها كل شيء.

ولا نكاد ندرك كيف كان محمد نبيًّا وآدم بين الماء والطين، والمرجح أنّ هذا التصور اقتبسه الصوفية من الفلاسفة القدماء، والمهم هو أن نفهم أنّ الصوفية يتصورون ذاتًا أحدية، لا تتكثر إلا بالتعينات، والتعين الأول هو محمد، وهو الحكمة الفردية، وعنه نشأت جميع التعينات حتى الأنبياء، ومن أجل ذلك كان سيد جميع الناس، وكان خاتم الأنبياء[23].

ويعزى لابن عربي الترويج لهذه الفكرة في العالم الإسلامي، والمغربي والأندلسي على الخصوص، فنراه مثلا في فصوص الحكم، في الفص الأخير منه بعنوان حكمة فردية في كلمة محمدية يفسر هذه النظرية: "إنما كانت حكمته فردية، لأنّه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بدئ به الأمر وختم، فكان نبيا وآدم بين الماء والطين، ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين"[24].

وببعد صوفي خالص يتبنى الديسي فكرة أنّ محمد سر الكون والوجود، وأنّ الحقيقة المحمدية سبقت كلّ حقائق المخلوقات فيصير الرسول الهاشمي في عرف من يتبنى الفكرة مدار الكون والعالم.

وكان نبيا قبل فتق العوالم وآدم لم يخلق ولم يتجسد

وعلى شاكلته يؤكد بلقاسم بن منيع في ميميته الملحمية أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الكونين والعالمين، وأنه عين الوجود وسر الكون:

ياسين إنسان أعين الوجود به مناهج الرشد أضواء على علم[25]

ويقول في مقام آخر من قصيدته العصماء:

وأول الأنبيـــاء بنور نشأتــه بمظهر الجسم جاء من أخيرهم

وثم سر جليل الشأن يعلمــه منشــي العوالم مما نوره العمـم

في عالم الذر إذ عنت لبعثته والكون في عطل ما منه مئتدم[26]

وهذه الحقيقة المحمدية لا تكاد تخفى ببعدها الصوفي حتى عند أكثر الشعراء تعمقا في الأبعاد الإصلاحية، ونقصد بذلك الشاعر محمد العيد آل خليفة الذي كان يدعو إلى التحضير للاحتفال النبوي، والتذكير بتاريخه المنير:

واعدد على الأسماع من تاريخه عبرا لكـــل موفق ومســـود

فهو الــذي ذرا الاله عبـــاده وجمــاده من نـوره المتوقـــد

ولقد تبنى الكثير من أقطاب الصوفية هذه الفكرة التي يراها زكي مبارك احتيالا للوصول إلى القول بفكرة وحدة الوجود، ومن هؤلاء ابن عربي، البوصيري، محمد البكري وقد أفصح عن هذه النظرية أيضا ابن مشيش في صلاته النبوية المعروفة لدى خلق كثير من المتصوفة سموها الوظيفة.

ومن هنا أعاد بعض شعراء المدائح النبوية فضائل الأنبياء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستغرقوا في الروايات الغيبية التي تتحدث عن هذه العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين بقية الأنبياء، هذه العلاقة التي تقوم على استمداد الكرامات والمعجزات من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عكس نوره الأزلي في ذواتهم[27].

ولقد انسكبت الأباطيل والخرافات في أشعار المولد النبوي نظرا لاعتماد أصحابها على أحاديث واهية ضعيفة، وهو ما اضطر بعض الدول العربية في وقت مبكر إلى تبديد هذه الأناشيد التي تنقل الخرافة في الأوساط العامة، واستبدالها بأناشيد لا تخالف السنة، كما حدث في مصر[28]؛ وقد اعترض طه حسين على الأمر دفاعا عن روح الخيال الأدبي الذي تفتحه هذه النصوص في خواطر أصحابها مؤكدا "أن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء، إنّ من فساد الذوق ألا يباح للجماعات إلا الحق الذي لا حظ للخيال فيه، إنّ من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين".

ومن حق طه حسين أن يدافع عن الخيال الأدبي شريطة ألا يتعارض مع حقائق الدين أو يطعن فيها، أو يزايد عليها، فليس الدين الإسلامي هو دين المسيحية المحرف الخيالي الذي عبثت بكتبه قصص خيالية صنعتها أيدي الأحبار، خاصة وأنّ أنصار الحقيقة المحمدية استهوتهم النظرية لأنها تتجاوب مع تحليق الخيال، ومع المبالغة الشعرية، وقد تضخمت على حد تعبير الباحث علي المكي معجزات النبي في المدائح، وأضيفت إليها تفاصيل خرافية كثيرة من نسج الخيال[29]؛ لكنها في النهاية مفسدة للتاريخ ومشوشة على السيرة، ومربكة للذوق.

4- المدائح بين المصلحين والمتصوفة:

وللديسي ديوان بعنوان منة المنان الحنان[30]؛ يشتمل على أربعة ألاف بيت في أغراض مختلفة، فجاء متنوعا في موضوعاته، منها المدائح النبوية والضوابط الفقهية، والنبوية والتهاني والمراثي، والألغاز الفقهية والنحوية، وغيرها، أما فصل المديح النبوي فيضم 21 صفحة يحتوي على الموضوعات التالية:

القصيدة الدالية التي هي بالمحاسن حالية في مدح سر الوجود، ومنبع الكرم والوجود صلى الله عليه وسلم، قصيدة فائقة في مدحه صلى الله عليه وسلم، وقصيدة لامية من البحر الخفيف تسمى بالوسيلة في مدح صاحب الوسيلة، صلى الله عليه وسلم، والنفحات العنبرية في مدح خير البرية، والوسيلة العظمى بصاحب الشفاعة الكبرى[31]؛ وهذا ما

يكشف أن المنظومات التي خطت في الحقبة الاستعمارية وما قبلها كانت تهتم بالمديح النبوي، وبالتوسلات بصفة عامة. يقول الديسي:

أحمد أشرف الورى أكرم مخلوق يـرى أفضل من وطى الثرى ممن مضى وممن يـج
به الجنون هتفت ونار الفرس أخمدت كذا الـــكهان أخـــبرت ببعثه والمـــرج
الحبيـــب فائق والطيـــب منه عابـــق والورد والشقـــائق في الخـــد كالبنفســـج
حن له الجذع جذع من بعده وقد نبغ من كفه الماء وانصدع ايوان كسرى الحـــرج
خلاصـــة الخلق جميعـــا فهو المغيـــث والشفيع والمنجي من هول فظيع ولهب ووهـج[32]

وهو يبجل الحقيقة المحمدية، ويظهر مقاليد الوقار والتقدير للرسول محمد صلى الله عيه وسلم خير البرية، ويومئ إلى أنّ الجن تنبأت بمقدمه وأخبرت عنه مما يجعله رسول الثقلين كما أنّ من علامات بشارته النبوية عند ولادته انطفاء نار الفرس التي كانت تعبد وموقدة على الدوام في إيوانهم، وانشقاق حائط قصرهم.

كما يمتدح جماله على طريقة المتصوفة "ذلك أنّ أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم درجوا على وصف ملامحه الجسمية، ولذلك مواطن في كتب الحديث، وهو نفسه كان جميلا، والأنبياء في الغالب كانوا من أهل الجمال، لأنّ الدعوة إلى الحق تحتاج إلى شفيع من الوجه المقبول"[33].

ويدخل في المدح النبوي كذلك ترداد أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم التي عرف بها في حياته على شاكلة ما فعله الشعراء المتصوفة في تمجيد أسماء الله الحسنى وتقديسها بتضمينها في الشعر، ومع ما اعتراها من تقليد ونمطية من بدء بذكر الصفات والأسماء وختمها بالصلاة والتسبيح، فإنها مؤشر بيّن على ضعف الأدب، فهي تختلف بصورة جلية عن قصائد المدح من ناحية السبك الفني، فالعناية بالمعاني المجردة، والأفكار السافرة يطغى على التعبير البلاغي والتصوير البياني الخلاق، فما جدوى هذه النصوص في دائرة الأدب حقيقة أنها لا تصلح إلا كشاهد للتاريخ، أو معضد للنزعة الدينية، ويدخل في إطار المدح النبوي كما أومأنا سابقا أشعار التشوق إلى مكة، وإلى الحج لبيت الله الحرام.

ومن بين القصائد الملحمية في المدح النبوي ما نظمه الشيخ بالقاسم بن منيع[34]؛ تحت عنوان: "نزهة اللبيب في محاسن الحبيب" جعلها في (402) بيت شعري سارت على خطى البردة البوصيرية لكن صاحبها حافظ على خصوصية نظمه، ولم يخضع خضوعا أعمى للنموذج الذي استقرت عليه المدائح، فهي إن اتفقت مع منظومة البوصيري في أنها ميمية مكسورة الروي، فإنها تجافت عنها في عدم التزام صاحبها بالمقدمة الغزلية، بل بالصلاة على النبي محمد ثم ينبري إلى ذكر محامد الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاسنه انطلاقا من أسمائه وصفاته. يقول الناظم:

يا رب صل على من باسمه العلم تنحل عنا عوارض من اللمم
فرد العناية من قد حاز في أزل صلاة خالقه والخلق في عدم[35]

ويشيد الشاعر ببطولة النبي صلى الله عليه وسلم بقضائه على الشرك، وتوحيد الناس تحت راية الإسلام معتزا بفتوحات الرسول رغم مقاومة عبدة الأصنام والطواغيت:

نبي الملاحم كم قد قدّ من بطل وكم ميادين مثل الموج ملتطم
هذي حنين وذي بدر وطائفها والفتح تفتح أينا لمن يشم
دعا العشيرة بالفرقان منتدبا لكنها من صدى الأصنام في صمم
حتى أغار على الأقوام مصطدما بكل صأرم حزم أي مصدم[36]

ثم يطيل الشاعر على طريقة المدّاحين في وصف شمائله التي عرف بها بين الناس وفي معاملته من حلم وعدل وأمانة وسائر مكارم الأخلاق التي بعث ليتممها، ويقف بعد ذلك على ملامحه الخارجية وحسنه فتآلف المظهر والمضمر، والمنظر والمخبر، وكأنها إشارة لطيفة من المتصوفة بكمال صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وأن نور الداخل ينعكس على محيا الخارج.

أسيل خد مورد جميل سنا والجيد دمية عاج نافح النسم
مليح شكل عظيم في جلالته في القرب والبعد عن الحب لم تحم
فمن سنا برقه اللماع في حلك ما دق جسما يرى كمنظر الجشم
لكنه من خيار العرب في حسب ومحتد قد حوى فرائد النظم[37]

يشير الدارسون[38]؛ أنّ هذه القصيدة جمعت بين الإصلاح والرؤية الصوفية، فاعتبار الرسول مصلحا وتذكيرها بأمجاد الماضي شأن إصلاحي، وحديثها عن سر الوجود وعالم الغيب ومعجزات النبي ذو بعد صوفي، بل هي توجه رسالة مبطنة في ضرورة أن يسلك المصلح طريقه بسعة صدر وهدوء، وكأنها تنبه المصلحين الذين ظهروا في تلك الحقبة بضرورة تخفيف اللهجة خاصة مع أنصار التيار الطرقي، مع العلم أنّ المصلحين حملوا حملات فيها حرارة الدعوة، وشدة أهل الحق على أباطيلهم وبدعهم.

الهاشـــمي مقيـــــم سنـــة الحنـــــفا عـــن فترة وأجيـــج ألغى مضطـــرم
بذلك المصلح الهادي[39] قد انتشلت وسطى البريئة من معاطب الظلـــم[40]

ويشير الأستاذ الهادي الحسني أن كثيرا من طلبة العلم عند الشيخ بلقاسم هم من أنصار جمعية العلماء المسلمين، ليؤكد أنّ الشيخ وإن لم ينضم إلى الجمعية فإنه لم يغرس في صدور تلاميذها بغضها، حتى أن ابنه محمد انضم إليها[41].

يعدّ محمد الهادي السنوسي[42] من أبرز الشعراء المصلحين التزاما بنظم قصائد شعرية في المولديات، منذ عشرينيات القرن العشرين، وهو يتخذ من المناسبة الدينية فرصة لبثّ الروح الوطنية، وتوكيد النزعة الدينية، وتنبيه الغافلين، فيقول:

هلالك من بين الأهلة لم يغب ويومـــك في الأيام ذو عزة رحـــب
وشهرك من بين الشهور كأنـــه منـــارة نـور من لوامعها الشهـــب
وعامك عام، لا تماثله الدنـــى خصيب المراعي، زهره منعش رطب[43]

ويكرر الشاعر كلمة الهلال في مستهل كلّ مقطع كرمز لمشكاة النبوة، وسرمدية استمرار مددها في الخلق، وهو لا يتوانى من إرسال إشارات خفية بضرورة النهوض والمواجهة:

هلالك يا فخر العروبة لم يـــزل كما كان لكن خانه الطعن والضرب

ويبدو أنّ القصائد المولدية الإصلاحية ليست معرضا للاستفاضة في مكارم الرسول صلى الله عليه وسلم الخلقية والخلقية، ففي السيرة ما يغني عن هذه الخطب، بقدر ماهي فرصة لنقد العادات التي وقع فيها بعض المتدينين وجعلوها جزء من الدين، فيلومهم قائلا:

أردنا لهم آي الكتاب شريعـة فهاج طغـــام لا تـــروق لهم كتـــب

وأوردهـــم ورد الخرافات غيلة أفكارهم، كي يسهل الدجل والسلب
وكنا ظنناهم هداة فأسفـــرت تجـــاربنا عنهـــم فأهداهـــم ذئـــب

وهم يرفضون دعوات المصلحين، ولا يقبلون إلا ببدعهم المنكرة يتشبثون بها، ولا يرون بديلا عنها، ويعزى نفاذ هذه الهمة الإصلاحية التي أظهرها السنوسي في شعره المولدي إلى أفضال تتلمذه على يد الشيخ ابن باديس بقسنطينة، فقد أنقذه من آثار الخرافات التي تسربت إليه بحكم البيئة الجزائرية حينئذ، وصرح بما أصابه في كتابه البكر شعراء الجزائر: "كنت قبل صحبتي لهذا الأستاذ الإمام ولوعا بأباطيل الخرافيين من الطرقيين راسخ اليقين في الإيمان بطواغيت الدجالين، ولقد أصبحت والحمد لله حر الضمير والعقيدة والفكر راسخ اليقين في أنّ الاسلام هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لا التصوف وما يدعيه الصوفيون أو المتصوفون"[44]

ينال ابن آوى عندهم كل حظوة وللمصلح الهادي الشتائم والسب

وقد لاحظ الدارسون[45] أن السنوسي في قصيدته هذه كان أكثر حماسا ووطنية واستنهاضا للهمم ودفعا لأبناء وطنه للعمل على مقاومة المستعمر، بينما في قصائده المولدية الأخرى التي تلت هذه الحقبة مثل فترة الخمسينيات اقتصر على مدح الرسول وعشيرته وذكر المسجد وأناشيده الاحتفالية، ولعل ذلك راجع إلى الحرب العالمية الثانية عامة، ومجزرة الثامن ماي عام 1945 التي كبتت الأصوات، ولغمت الأجواء.

نرى في القصائد المدحية الإصلاحية بمرور السنين تطورا في المفاهيم، وترفعا عن النظريات البعيدة عن التعاليم السمحة كالحقيقة المحمدية، فقد جاهد المصلحون في تحقيق العبودية الحقة لله تعالى ونبذ الوسائط، فابتعدوا عن المغالاة في مدح النبي حدّ الشطط فأشاعوا في نصوصهم الشعرية والنثرية تشديد الرسول صلى الله عليه وسلم في مجمل أحاديثه على عبوديته لله تعالى، فليست علاقة نبوة ولا تفويضا بالخلق، أو بالوساطة بالخلق مما تحاول نظرية الحقيقة المحمدية أن تخفيه في ثناياها.

والأمر المؤكد في هذا السياق أن شعر المولديات والمدح النبوي، قد خنقته الركاكة بطول المراس، في المشرق والمغرب على حد سواء، والسبب يرجع للمعاني المكرورة التي ألفتها

الأسماع، والأفكار التي تعود عليها الناس، وهو ما جعل ابن خلدون "يحكم على شعر الربانيات والنبويات أنه قليل الإجادة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول"؛ بسبب المعاني المبتذلة بالشهرة لأنّ الكلام ينزل بها عن البلاغة، فيصير مبتذلا، ويقرب من عدم الإفادة وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طرفان"[46].

وفي هذه الحالة سيكون مستقبل المدائح النبوية أمام معضلة حقيقية، هل تمنح الذائقة الشاعر كلّ مساحة الخيال ليمور بأفكاره في عالم الشطط حتى يبالغ في رسم المعجزات بريشة الفنان الواهم، فيجافي التاريخ والسيرة الحقيقية، وإن كان الاعتدال مطلوبا في هذا السياق، ثم ألا ينبغي للشعراء اليوم أن يلحقوا بمدائحهم النبوية ما استجد في الساحة العامة من حرب يشنها بعض الرسامين والكتاب بدعوى حرية التعبير، ويكون لهم أيضا بالمقابل موقف من ردود فعل بعض المسلمين المتطرفة حول المساس بمكانة خاتم الأنبياء والمرسلين.

خاتمة:

نخلص في النهاية إلى أهم خصائص المديح النبوي الجزائري بشقيه الإصلاحي والصوفي:

1. التصوير البياني الخلاق مثل قول الشاعر محمد العقبي يرسم صورة العفة والتقشف والتقوى في مدحه للنبي استمدها من قصة النبي يوسف مع زوليخا مقارنا بين الدنيا وزخرفها وبين زوليخا وجمالها، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يستجب للدنيا وزينتها:

قد جاء والدنيا عجوز غابـر فغدت زليخا في الأذيـال

عـن نفسه قد راودته وأنـه لربـه عنها في اشتغـال[47]

2. الأسلوب المباشر الذي يقدم المعنى على المبنى، وتكون قيمة النص في أفكاره لا أسلوبه وتلك المنظومات الشعرية التي نسجها الكثير من الطرقيين وبعض المصلحين ساذجة في ألفاظها ومعانيها، فهي ليست من الأدب الفحل، لكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها في البيئات الشعبية، مثل قصيدة أبي اليقظان قم يا محمد[48]:

قـم يا محمـد يا ختام المرسليـن وحكيم أهل الأرض طرا أجمعين

وانهض رسول الله من جوف الثرى وانظر بعينك كيف حال المؤمنين

3. تعدد المواضيع في القصيدة الواحدة، فقد يجمع الشاعر إلى جانب المدح التوسل بالنبي وبالقرآن، وبالدعاء والرجاء والاستغاثة، فتتكدس كل العواطف الدينية في نص واحد مثل قول الديسي داعيا من حلت به الخطوب الجسام إلى التقوى والتوسل:

فكن واثقا بالله ذي العرش أنــه حليـــم كـــريم منعم متفضـــل

وبالمصطفى المختار كن متوسلا فما خاب من بالمصطفى يتوسل[49]

4. الغلو في التوسل بالشيوخ[50]؛ وأصحاب الطرق والزوايا والأشراف حتى يتوسل الناظم المغالي المتصنع بالأموات والأحياء وجوار الشيوخ في تعبير كرنفالي يتعالى فيه الصياح ولا ترمق أثرا لشاعرية.

5. الإشادة بالأعمال بدل الأبدان عند مداحي الحركة الإصلاحية ورجالاتها، ويتسم أسلوبهم بالرصانة، والاعتدال، وتغليبهم الجماعة بدل اختزال الحركة في الزعيم.

6. غياب الإحساس العميق والعاطفة القوية، أو تقاصر اللغة التعبيرية عن نقل العواطف الحارة لمن طرقوا هذا المجال من الطرقيين، فبقي تعبيرهم مشتركا متشابها ابن بيئته التي اتسمت بضيق الأفق، ومحدودية المعجم، وضحالة الذائقة الفنية، لذلك يصعب أن تنافس قصيدة جزائرية مدحية نظيرتها المشرقية عند الموازنة نظرا للبيئة الفرنسية التي قهرت اللسان العربي بالجزائر[51].

7. العاطفة الدينية الاستقصائية التي تجعل الناظم يعنى بالحقائق التاريخية وبمحفوظه ليضمنه قصائده كمدح الصحابة والتابعين والفاتحين الذين حلوا بالجزائر، مثل عقبة بن نافع قتيل كسيلة، وحتى خالد ابن سنان الذي أشيع أنه نبي مدفون بصحراء الجزائر.

8. غياب التحريض على الجهاد في القصائد المدحية الصوفية وحضوره في القصائد المدحية الإصلاحية على غرار قصائد المشارقة كالبارودي وشوقي والساعاتي، فهل كان خوفا من سوء ظن الاستعمار بهم واتهامهم بالتعصب للإسلام، أم أنّ الجهاد هو الفريضة التي غابت عن الطرق في القرن العشرين بعد أن اخترق أسوارها الاحتلال؟

9. غلبة بحور الكامل، والطويل، والبسيط، والرمل، والرجز، والسريع، على موسيقى الشعر المدحي الجزائري، مما يناسب موقف الجلال والتوقير أمام المقام المحمدي، وتطفو الإيقاعات الخفيفة عندما يغلب الحال والوجد الصوفي في الحضرات، وحلقات الإنشاد والذكر الجماعي.

10. حاجة المديح النبوي أن يخرج من الأساليب التقليدية، وأن يستفيد من المولديات والبديعيات كتراث أدبي خام يحتاج للصقل، لا للتكرار والاجترار الذي لا يرقى للأصل، ولا يماثل روح العصر.

الهوامش والإحالات

(1)– يقول حسان بن ثابت في داليته:

فبيناهم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

وقد جاء ذكر الطريقة أيضا ونزر غير قليل من تعابير المتصوفة مستوحاة من حكم علي وخطبه الموجودة في نهج البلاغة كقوله: بعث والناس في ضلال وحيرة ... فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة.

(2)– نظر عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ج1 ص: 49، إلا أنّ الباحث زكي مبارك يرفض إقحام قصيدة بانت سعاد، وقصيدة الأعشى في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لغياب قصدية المدح الشريف، ولخلوها من روح الدين، فالأول نظمها خشية القتل والثاني نظمها لطلب النوال، وقد أخرج شعر حسان ذو اللهجة الجاهلية من دائرة المديح النبوي بحجة مقارعته للخصوم على الطريقة الجاهلية، ويرى قصيدته الهمزية أول بذرة للمديح النبوي الإسلامي، إلى جانب قصائده الدالية الثلاث، ويرى قمة الروحانية في مدح الفرزدق للنبي وآل البيت عندما رأى علي بن الحسين يطوف بمكة وأنشد قصيدة مدحية في حضرة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فسجنه، ورفض أخذ عطاء زين العابدين في سجنه، فالمدح لله هو عين التصوف. ينظر: المدائح النبوية زكي مبارك، المحجة البيضاء، بيروت لبنان، 1935، ص48،20.

(3)– ينظر محمود علي مكي: المدائح النبوية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1991، ص55 ويشير الكاتب إلى وجود عاملين لشيوع قصيدة كعب الأول يتعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان سمحا متسامحا مع ألذ أعداءه والثانية تتعلق بالشاعر الذي انقلبت حياته رأسا على عقب بعد إلقاء القصيدة، فانتقل من كفر إلى إيمان ومن عربدة إلى أمان الإسلام، فكأن

هذا اللقاء كان عصا سحرية حولت نوازع الشر في الشاعر إلى خير محض، وفي اعتقادي أن هذه القصيدة كسبت الرهان والسبق لأنها أنقذت شاعرا من الهلاك، فرفعت من مقام الشعر عاليا أمام الناس، وأنها تليت في حضرة النبي في موقف نادر استقاد فيه الشاعر من العفو ونال بردة الرسول الشريفة، فملابسات القصيدة الخارجية كانت أكثر تأثيرا من مضمونها.

(4)– المرجع نفسه، ص 99.

(5)– زكي مبارك: المدائح النبوية، ص48.

(6)– من أوائل شعراء المديح النبوي ولد سنة 588هـ بقرية صرصر ببغداد استشهد بعد غزو المغول سنة 656هـ عرف بالقصائد المدحية الطوال بلغت إحدى قصائده المسماة الروضة الفاخرة في أخلاق محمد المصطفى الباهرة ثمانمئة وخمسون بيتا.

(7)– من أقدم المصادر الأدبية في جمع المولديات كتاب مولد العروس لابن الجوزي ت 597 هـ، لكن نظرا للخلط الكبير الموجود فيه يشكك البعض في نسبته لابن الجوزي جازمين أنّ من نسبه إليه هو المستشرق كارل بروكلمان.

(8)– هو فن يوظف المدح النبوي لخدمة علم من علوم العربية، هو علم البديع، من أشهر البديعيات الجزائرية بديعية الشيخ طاهر الجزائري موجودة في كتابه: بديع التلخيص وتلخيص البديع قلد فيها بردة البوصيري.، وقد خص الديسي بديعيته بمدح الشيخ الهاملي، يعتبر زكي مبارك البديعيات فنا أدبيا رفيعا، أذاع في الناس ألوانا من الثقافة الأدبية، ينظر المدائح النبوية، ص14.

(9)– محمود سا لم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1996 ص25.

(10)– لا يرتبط المدح كغرض أو سلوك في الحياة إلا بمدح الأحياء، ولكن مع ذلك سمى الناس الإشادة برسول الله مدحا، وهي إشارة لطيفة تنبه إليها زكي مبارك، فقصيدة رثاء الرسول تطلق على من عاصره، أما من جاء بعده فيسمى شعره مدحا، كأن المادح يعتقد أن الرسول موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء، وهناك أحاديث تؤكد هذه النزعة أن الأرض لا تأكل أبدان الأنبياء، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يرد على من صلى عليه وسلم.

(11)– ينظر المدائح النبوية ص 18 وما يليها، وقد اعتبر زكي مبارك دراسته التي تعد الأولى من نوعها في بحث هذا اللون الشعري أن العاطفة الحارة لا تخص كل شعر المدائح النبوية بل أن بعض من نسجوا في هذا الباب يفتقرون للذوق الأدبي.

(12)– من أوائل قصائد المدح النبوي التي تخلصت من نزعة التشيع وأخلصت لمدح الرسول القصيدة الشقراطيسية نسبة لصاحبها الفقيه المالكي التونسي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشقراطيسي ت 466هـ تقع في 135 بيت.

(13)– محمود علي مكي: المدائح النبوية، ص 129.

(14)– يعزى أول ظهور للمديح النبوي ببلاد فارس إلى سنة 604هـ، وقد جاء في كتاب نفح الطيب أن ابن دحية مر بمنطقة أربل ورأى مظهر الدين كوكبري معتنيا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول من كل عام، فصنف له كتابا سماه التنوير في مولد السراج المنير، وختمه بقصيدة طويلة، .ينظر المدائح النبوية ص200، كما يؤكد الباحث علي المكي أن الخلافة الفاطمية في مصر قد أولت اهتماما بعدد من الموالد، أصبحت أعيادا رسمية، وأهمها أربعة: مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومولد الخليفة الظاهر منذ أوائل القرن الرابع الهجري إلى جانب شيوع ظهور الاحتفال بالموالد الشخصية الذي كان يسمى "التحويل" في عهد الدولة البويهية، ينظر المدائح النبوية، ص 97.

(15)– ينظر محمود علي مكي: المدائح النبوية، ص 96.

(16)– شاعر من مدينة مستغانم 1853. 1925، درس بزاوية مستغانم، وانخرط في سلك التصوف حتى صار من شيوخه، معظم شعره مدائح نبوية وتوسلات.

(17)– في هذه القصة المروية في السيرة ذكر مسح الرسول صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة على بعض غنم أم معبد عاتكة بنت خلف، فحلبت، وكانت قبل ذلك لا تدر، ثم وصفها للنبي بدقة متناهية صارت أوصافها منهلا لشعراء المدح في تقريب الصفات الخلقية للنبي صلى الله عليه وسلم فكانت مما قالته: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة حسن الخلق مليح الوجه لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة قسيم وسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل .أحول أكحل أزج أقرن في عنقه سطع وفي لحيته كثاثة .إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل، لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب. ينظر ابن كثير البداية والنهاية،ج3، مكتبة المعارف بيروت، 1991، ص 192.

(18)– زكي مبارك: المدائح النبوية، ص 31.

(19)– دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار صلى الله عليه وسلم للشيخ أبو عبد الله بن محمد بن سليمان الجزولي، وذاع الكتاب بين المتصوفة مثلما ذاعت البردة بين الشعراء، ويرتبط أيضا ظهور الكتاب بقصة مثيرة حدثت للجزولي، يروي الشيخ "يوسف النبهاني" عن "الجزولي" أنه في يوم من الأيام، حان موعد الصلاة فذهب ليتوضأ للصلاة، فلم يجد ماء يخرج من البئر ليتوضأ به، ووقف محتارا، فلمحته صبية، فسألته من أنت؟ فأجابها، فتعجبت منه، أنه الشخص الذي يثنى عليه من الجميع بفعل الخيرات، ويتحير في كيفية إخراج ماء ليتوضأ، فقامت الصبية بالبصق في بئر الماء، حتى فاض الماء على وجه الأرض، وبعد أن فرغ من وضوئه، سألها

كيف نالت هذه المرتبة، فردت عليه إنها "بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"، فأقسم يمينا أن يسطر كتابا عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

(20)– محمد بن عبدالرحمن الديسي، شاعر جزائري 1854،1923 ينحدر من مدينة المسيلة حفظ القرآن وأصيب في حداثة سنة بالجذري ففقد بصره، من الذين درسوا على يده أبو القاسم الحفناوي.

(21)– محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص245.

(22)– مفهوم هده النظرية أنّ الله تعالى خلق الوجود بخلق نور، هذا النور هو أفضل ما في الخلق، وهو النور المحمدي، أو هو النور الذي تجسد فيما بعد بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويذهب بعض أصحاب هذه النظرية إلى أنّ النور المحمدي كان يتجسد في أشخاص آخرين قبل أن ينتهي إلى تجسيده الحقيقي والأخير، وهو رسول الله، وهؤلاء الأشخاص هم أنبياء الله، فهم بذلك تجسيد لحقيقة واحدة، أو لنور واحد هو النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية، وقد وضعت هذه النظرية في مفهوم أشمل وهي أن هذا النور خلق في صلب آدم– عليه الصلاة والسلام– ولا زال ينتقل من صلب إلى صلب، ومن رحم إلى رحم، إلى أن أودع في صلب عبد الله بن عبد المطلب، ورحم آمنة بنت وهب. ينظر محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص: 247.

(23)– زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الهنداوي ، مصر 2012، ص:258.

(24)– ينظر، محي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، شرح عبد الرزاق القاشاني، آفاق للنشر والتوزيع القاهرة، 2016، ص 214.

(25)– بلقاسم بن منيع: نزهة اللبيب في محاسن الحبيب، ط1، المطبعة الجزائرية، قسنطينة، الجزائر 1926 ص 11.

(26)– المصدر السابق، ص: 42.

(27)– محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي،ص: 246.

(28)– دعا إلى الفكرة وزير الأوقاف المصري محمد نجيب الغرابيلي 1876.1947، وذلك سنة 1934

(29)– ينظر محمود علي مكي: المدائح النبوية، ص: 135.

(30)– حاولت دار الخليل القاسمي برمجة المخطوط من أجل نشره بمطبعة دار الأمة لكن ورثة الشيخ رفضوا طبعه بحجة أنهم من سيتكفل بطباعته فبقيت ما يقرب 200 قصيدة و4000 بيت في حكم المنسي، وبعض الباحثين حقق أجزاء من المخطوط، ينظر مقال: مخطوط منة الحنان المنان للديسي في محنة بين الورثة ودور النشر، الشروق عدد 28،05،2007.

(31)– ينظر سعاد مقلاتي: ديوان منة الحنان المنان للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي تحقيقا ودراسة مذكرة ماجستير في تحقيق النصوص ونشرها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر – باتنة 2015.2014، ص41.

(32)– المصدر نفسه ص 94.

(33)– زكي مبارك: المدائح النبوية، ص36.

(34)– شاعر وأديب من قسنطينة (1870–1954) اشتغل بالتدريس والوعظ، ينظر عادل نويهض معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض بيروت 1980، ص322، أما الشيخ محمد الهادي السنوسي فيشير إلى أنه ينحدر من تاكسنة بجيجل وهو من مواليد 1875، درس بزاوية ابن الشيخ الحسين في سيدي خليفة بولاية ميلة، ثم التحق بالزيتونة سنة 1894، وحصل شهادة العالمية درّس بزاويته الأم زهاء ثمانية وعشرين سنة، وبنى مسجد بتاكسنة، وتوفي في حجتة الرابعة بالمدينة المنورة، من تلاميذه مبارك الميلي، ومحمد العربي التباني، ينظر، مقال الشيخ بلقاسم بن منيع لمحمد الهادي الحسني، الشروق عدد 2015.04.30

(35)– بلقاسم بن منيع: نزهة اللبيب في محاسن الحبيب، ط1، المطبعة الجزائرية، قسنطينة، 1926، ص5.

(36)– المصدر نفسه، ص 7.

(37)– المصدر نفسه، ص10.

(38)– ينظر عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري،ج1، ص 88، ويشير إلى وجود الغموض في بعض أبيات القصيدة يخرج بها من دائرة الإيحاء والتلميح إلى المعضلة في الشعر بمراكمة التراكيب بعضها فوق بعض.

(39)– ربما ذلك تعريض بالمصلحين الذين ظهروا في هذه الفترة حاملين على الطرق في غير إشفاق لهول البدع التي وقعوا فيها، وكان قبلها أيضا كتب ابن باديس رسالته الشهيرة في الرد على ابن عليوه وأحدثت ضجة كبيرة.

(40)– بلقاسم بن منيع: نزهة اللبيب في محاسن الحبيب، ص:14.

(41)– ينظر، مقال الشيخ بلقاسم بن منيع لمحمد الهادي الحسني، الشروق عدد 2015.04.30، وقد عقد ملتقى وطني بجيجل يومي 22–23 أفريل 2015، بعنوان مسيرة الشيخ بلقاسم بن منيع: أعماله وآثاره.

(42)– شاعر وأستاذ من مواليد 1902 ببسكرة، تعلم بمسقط رأسه ثم انتقل إلى قسنطينة لإكمال تعليمه عند الشيخ ابن باديس، عمل مدرسا ومديرا لمدرسة، ثم مبعوثا من قبل جمعية العلماء إلى باريس درس بثانويات الجزائر بعد الاستقلال، توفي سنة 1974، من كتبه شعراء الجزائر في العهد الحاضر.

(43)– جريدة وادي ميزاب، عدد 102، 28 سبتمبر 1928، ص:03.

(44)– محمد الهادي السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، المطبعة التونسية، تونس، 1927 ص 186.

(45)– ينظر عبد الحميد غنام: محمد الهادي السنوسي حياته وشعره، منشورات السائحي، الجزائر، ط1 2007، ص: 212.

(46)– ينظر ابن خلدون: المقدمة، دار الفجر القاهرة، 2004.

(47)– جريدة النجاح 17 سبتمبر 1926.

(48)– أبو اليقظان: الديوان، ج1، المطبعة العربية الجزائر، 1932، ص: 25.

(49)– الديسي: ديوان منة الحنان المنان، ج1، ص86.

(50)– مما يشير إليه مؤرخو الأدب الجزائري مدائح الشاعر عاشور الخنقي للهاملي، وهي متطرفة، سادرة في غلوها، وجاءت ردا على العالم صالح بن مهنا الذي حمل على بعض الطرقيين الذين استغلوا الدين لمآربهم الشخصية على حساب العامة، قال الهاملي في بعضها:

فقال ربي فقال الرب عبدي نعم أمـــرك للشـــيء كن فقل وقـــــم

لك التصرف عن إذني بلا حرج في الإنس والجن والشيطان والأمم

(51)– ينظر موازنة أقامها الباحث عبد الله الركيبي في كتابه لشعر الديني ج1 السابق الذكر، بين قصيدة أحمد شوقي المدحية "نهج البردة" وقصيدة بلقاسم بن منيع "نزهة اللبيب في محاسن الحبيب" وخلص إلى أنّ سمة قصيدة المدح النبوي من خلال النموذج الجزائري المعتمد مفككة في بنائها مطنبة في تعبيرها بينما قصيدة شوقي موجزة، ملمة بموضوعها في غير إسراف، موحية في تعابيرها.